مأساة الرضيع

بقلم : الاستاذ هادي العصامي

لنعمد الى ما ينصب من العيون من شآبيب الدموع اللاذعة ، والى ما تصعده الاكباد من الزفرات المحرقة عند مستهل كل عام جديد ، كأن في كل نظرة اليه مادة للبكاء لا تنضب ، وقبساً يضرم في الاحشاء نار الأسى والحزن كأن وقودها الناس والحجارة .

إنها لنظرة تنفذ الى حدود تلك الفاجعة فتراها سلسلة فوادح جسام ، كل منها كاف لأن يستمطر الدمع ، ويذكي جمرة الحزن ، ومن فداحتها تثب بالجسم رجة القلب كما يثب الملسوع من ألم لسعة أفعى رقطاء ، وتكسو الوجه ثوب الكآبة ، كما يكتسي الأفق ثوب الليل البهيم ، ويعلو النفوس وجوم عميق لتلك الدهماء التي حلت بساحة آل الرسول (ص) فتنحدر النفوس في أمواج الليل ، ليل الأسى والحزن ، وقد نزل بها من الهم والكمد ما لو نزل على الجبال لساخت ، أو البحار لاستحالت الى لهب متعال ، ولولا تلك الدمعة التي تستهلها من محاجرها ، والزفرة التي تبعث فيها فتات كبدها لماتت كمداً

وكيف لا ؟! وهذا الفادح المدلهم الذي أصاب روحاً سماوياً لا يزال عليه مس يد الله تعالى ، وفيه نفحة من روحه كان أدعى لأن يقرح الجفون ، ويرسل بدل الدموع سواد العيون .

روح قدسي انزله الملكوت الأعلى الى حضيرة قدس عامرة بالفضيلة ، وجعله زهرة يانعة ، تعطر أرجاء تلك الحضيرة بنفحات رياها ، التي هي نسمة من نسمات الجنة ، لا يعرف مكانتها الا من كان حشو نفسه انسانية كاملة الايمان بكل معاني الكمال ، لان ذلك الروح هو الشكل الانساني المحبوب الذي لم يستطع أن يفهم الانسانية عن خلجات نفسه بلغة اللسان ، فيعرب عنها بابتسامة خلابة ، وأنظرة فاترة ، هي من أهم بواعث السرور الى قلبها ، أو بدمعة تمثل رقته ونزاهة ضميره فتبعث اليها كل احزان النفس ، فكيف اذا اهتصر غصن تلك الزهرة ، ومشى فيها الذبول وهي بعد في الاكمام ؟!

نفس ملائكية نامت أحلامها ، أما عينيا — وان كانت في المهد فروحانيتها أيقظتها للحقائق المظلمة الفضيعة ، حينما اضطرم كبدها بنار الظمأ القاتل التي أتقدت في قلبها ، حتى ذبلت منها شفتاها الصغيرتان ، وفاض الذبول منها الى ما حولها ، فتراها في سكرة وسكرة من لهب الظما وحر الهجير .

فلم يجد الامام السبط (ع) بداً من أن يستعطف على الرضيع عباد الرذيلة (يزيد) وجيش الضلال ، فخرج به اليهم وهو يظلل له عن حرارة الشمس بردائه ، ولكن لا أدري بما ذا يظلل له عن لهب ذلك الظمأ القاتل .

يقولون أن الولد قطعة من الكبد ، فتقدم بتلك القطعة الطاهرة الى قوم حشو أرواحهم نفوس وحشية كاسرة ونفوس بهيمية ضالة عن الحق باتباع الهوى يطلب منهم جرعة من الماء كما يبل لظى ظمأ الرضيع ، وأراد أن يعرفهم أنه لم يحتج بالرضيع لنفسه فقال خذوه اليكم وبلوا تلك الجمرة المتقدة في أحشائه ، فأبت تلك الوحشية الكاسرة إلا وأن تصوب له سهما ، فتبرد ظمأه بدمه الطاهر .

أفاق الرضيع من تلك السكرة حين بل غليله بدم نحره فرفرف بيديه على صدر أبيه ، واندفع الأب بعاطفة الأبوة ، فانحنى عليه ، كأنه يحاول بالانحناء أن يلتأم صدع نحر الرضيع على صدع قلبه ، أو كاد ينشق قلبه ، فضغطه بانحنائه على الرضيع كيلا يشمت به العدو .

عاد به الى أمه الرباب ، وما كاد يستقر نظرها عليه ، حتى

أرسلت كل عواطف الامومة فى مجاري دمعها الغالي ، وكيف لا ؟! وقد ايقنت أنها أضاعت كنزها الذهبي الذي لا تملك سواه ، وفقدت بفقده أملها الباسم بعد أبيه ، واجتذت الحياة من قلبها غرس رجائها وأبدلت أحلامها اللذيذة بمرارة اليأس نظرته نظرة لا تملك فيها قدرة ولا تصبرا ، اذ كان حبها لهذا الوحيد حباً لا صبر معه ، فاخذت تكلم آلامها بلغة الدمع ، وتتحدث مع أوجاع قلبها بلغة الذهول .

حادث مدلهم مشى بين طياته ظلام الطبيعه القاسية فترك الأم لا تستهدي طريقها الأعلى لهب قلبها ، ولا تبصر فيه بياضاً إلا دموعها ، وهذا أشد ما تعانيه الانسانية الكاملة ، لأنها لا تجد لها مفزعاً منه ، ولا تطيق عليه صبراً أو تصبراً .

هبوا أن الامام الحسين السبط (ع) أجرم فاخذ بذنبه ، وليس له من ذنب في نظر الرذيلة إلا انه نهض داعياً لدين الفضيلة ، فما ذنب هذا الرضيع الذي لم يعرف الاجرام ، وما ذنب هذه الأم التي اقتطفت الوحشية تلك الزهرة من حقل حياتها ، حتى تركتها منذهلة اللب واجفة القلب ، صدعه ينطف دما وعينها تنطف دمعاً ، وقد مشى الذبول فيها ، كأنما الموت مشى من جسم الرضيع الى جسمها ، أكان ذلك احدى الحقائق الغامضة ، أم هي الحقيقة السهلة التي بها تمت الدعوة لاقامة معالم دين الفضيلة ؟ أجل انها هي الحقيقة التي لولاها لما كملت الحجة ، بل كانت هي القاعدة الأساسية التي شيدت عليها دعائم الدين ، وطوحت بالديانة الوثنية التي حاول يزيد احياءها الى هوة الحضيض ، وألبست دعاتها ثوب الخزي والشنار حتى تمحى الانسانية من لوح الوجود ؟

هادي العصامي

***

يا عائدين برأس سبط محمد

للشاعر الشهير الاستاذ الشيخ علي البازي

قف بالطفوف وناح بقاب مكمد ... واسأل بها عن ركب آل محمد
لما حدى الحادي به وعلى الثرى ... بقيت جسوم حمائه لم تلحد
وحرائر سيقت بغير مدافع ... عنها ولا حام ولا من مسعد
اخذت كما شاء العدو اسيرة ... من فدفد فيها يسار لفدفد
وبها اعيد لكربلا من أسرها ... فكأنها والنائبات بموعد

* * *

لم أنس زينب مذ دعت سكانها ... هل تدلمون بجثة الظامي الصدي
بالله هل شيلت جنازته التي ... بقيت على حر الثرى المتوقد
فيخال لي أن الجواب اتى لها ... تلك القبور فأعولي وتنهدي

* * *

يا عائدين برأس سبط محمد ... كي تودعوه وجسمه في مرقد
مهلا دعوه يسائل الجسد الذي ... فصلته عنه امية بمهند
ما ذا جرى بعدي عليك من العدى ... لما بقيت وأنت غير موسد
وأنا أخذت الى الشام على القنا ... وضربت في سوط الطليق الملحد
فكأن بالجسد الشريف يجيبه ... من بعد قطع النحر قد قطموا يدى
وغدت على صدري تجول خيولهم ... عمداً تروح الى الطراد وتغتدي
وتركت من فوق الصعيد مجرداً ... طاو وحر حشاشتي لم يبرد

* * *

يا دافني رأس الشهيد بقبره ... رفقاً بجسم بالسيوف مبدد
وتربثوا حتى تقيم مناحة ... من فوق حفرته بنات محمد
وتبثه الشكوى وتخبره بما ... فعل ابن ميسون بمجلسه الردي
مذ أدخلوا زين العباد مصفداً ... وعليه ادخلنا لذاك المحشد
ومضى ينافشد عن عقائل حيدر ... وعن الرباب ونحن عنه بمشهد
وقد انحنى من فوق رأسك قارعا ... بالعود ثغرك يا كريم المحتد
فدعته زينب مذ رأته بعينها ... هلا كففت فذ امقبل احمد
شلت يمينك ما اعتذارك في غد ... ان كنت تؤمن يا بن هند في غد

علي البازي